

النعيم الروحي في الجنة

د. الطاهر أحمد عبد القادر*

مقدمة

حال المؤمنين في الدنيا لا تطيب إلا بالإيمان، فالإيمان له طعم يعرفه من خالطت بشاشة الإيمان قلبه، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»^(١).

فالصالحون من المؤمنين أهنأ الناس عيشاً وأسعدهم في الدنيا ولو كانت أحوالهم المادية متدنية، وهو أمر مشاهد محسوس. وكلما كان المؤمن أكثر إيماناً كانت حياته مليئة بمسرات القلب، من طمأنينة بذكر الله ﷻ وتلذذ بمناجاته، ورضاً بالله حباً له وشوقاً إلى لقائه، ويذكر الإمام ابن القيم رحمه الله بعضاً من كلام الصالحين يعبرون فيه عن مدى سعادتهم عن أحوالهم الإيمانية، فأحدهم يقول: "لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف"، ويقول آخر: "إنه ليُمَرُّ بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً"، وآخر يقول: "إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب"^(٢).

فإذا كان هذا هو حال المؤمنين الصالحين في الدنيا فإن نعيمهم الروحي والنفسي في الآخرة لا شك أعظم وأكبر كيف لا وهم في الجنة مكرمون برؤية ربهم وسلامه عليهم ورضاه عنهم. ونعرض ذلك في ستة مباحث.

* أستاذ مشارك بكلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن.

المبحث الأول: نعيم رؤية الله ﷻ في الجنة

رؤية الله تعالى أعلى النعيم إطلاقاً وقد ذكر الله ﷻ رؤية المؤمنين له في الجنة بقوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

الذين أحسنوا هم المؤمنون، وكلمة «أحسنوا» تفيد أنهم أحسنوا العمل في الدنيا، وجزاؤهم هو الحسنى وهي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم (٣)، وقد ورد تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عن جمع من الصحابة، منهم أبو بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس وغيرهم رضي الله عنهم، والأحاديث الشريفة في إثبات الرؤية كثيرة متواترة (٤). ومن ذلك ما رواه البخاري رحمه الله عن قيس بن جرير قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر للقمر ليلة البدر قال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا» (٥).

ففي هذا الحديث بيان لرؤية المؤمنين لربهم دون شك ودون مزاحمة بعضهم لبعض، ودون مشقة بل في غاية الوضوح والجلاء (٦).

وفي الحديث إرشاد وحث للمؤمنين على القيام بالعمل المؤدي إلى رؤية الله ﷻ في الجنة وهو المحافظة على صلاتي الفجر والعصر في وقتيهما قبل شروق الشمس وقبل غروبها.

وفي صحيح مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] (٧).

فهذا الحديث تفسير من النبي ﷺ لمعنى الزيادة في الآية الكريمة وهي: رؤية الرب ﷻ كما أن الحديث يبين أن رؤية المؤمنين لربهم أحب إليهم من الجنة ونعيمها.

وفي آيتين أخريين يذكر الله ﷻ وجل رؤية المؤمنين له ، حيث يقول: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

أي: وجوه المؤمنين يوم القيامة ناضرة، أي موصوفة بالنضرة وهي حسن الوجه من أثر النعمة والفرح، فما يحصل في النفس من انفعالات يظهر أثره على الوجه^(٨)، وناظرة: أي تنظر إلى ربها وكان ابن عمر رضيهما يقول: «أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم تلا هذه الآية»^(٩).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى ربها»^(١٠).

ويحسن هنا إيراد مقتطفات من كلام سيد قطب رحمه الله والتي جاءت بليغة في تصوير وتقريب حال المؤمن عند تشوقه لرؤية الله ﷻ، يقول رحمه الله: "إن هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها؛ كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها. ذلك حين يعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لاتشبهها حالة، حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها. من ألوان النعيم! هذه الوجوه الناضرة... نضرها أنها إلى ربها ناظرة...

إلى ربها...؟! فأى مستوى من الرفعة هذا؟ أى مستوى من السعادة؟

إن روح الإنسان لتستمع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس، تراها في الليلة القمرء، أو الليل الساجي، أو الفجر الوليد، أو الظل المديد، أو البحر العباب، أو الصحراء المنسابة، أو الروض البهيح، أو الطلعة البهية، أو القلب النبيل، أو الإيمان الواثق، أو الصبر الجميل.... إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود.... فتغمرها النشوة، وتفيض بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة،

وتتوارى عنها أشواك الحياة، وما فيها من ألم وقبح، وثقله طين وعرامة لحم ودم، وصراع شهوات وأهواء...

فكيف؟ كيف بها وهي تنظر لا إلى جمال صنع الله ولكن إلى جمال ذات الله؟
ألا إنه مقام يحتاج أولاً إلى مدد من الله، ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله، ليملك الإنسان نفسه، فيثبت، ويستمتع بالسعادة التي لا يحيط بها وصف، ولا يتصور حقيقتها إدراكاً! (١١).

المبحث الثاني: النعيم برضوان الله على المؤمنين

ومن نعيم أهل الجنة الذي هو أعلى وأكبر من الجنة وما فيها، الرضوان الأبدي من الله ﷻ عليهم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

فقوله تعالى: «ورضوان من الله أكبر» أي: أن رضوان الله الذي يُنزلهُ عليهم أكبر من كل ما سلف ذكره من نعيم الجنة (١٢) في الآية.

وجاءت كلمة «رضوان» بزيادة الألف والنون كالغفران والشكران للدلالة على قوته، كما جاءت منكراً إشعاراً بالتعظيم و«أكبر» تفضيل لم يذكر معه المفضل عليه لظهوره من السياق (١٣).

فلا شيء من النعم وإن جلّت وعظمت يماثل رضوان الله، وإن أدنى رضوان منه لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية (١٤).

فرضوان الله سبب الفوز بكل خير وسعادة وبه يناط نيل كل شرف وسيادة في الدنيا والآخرة^(١٥). روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: يارب أي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(١٦).

وهذا الحديث الشريف يضيف أمراً زائداً عن رؤية المؤمنين لربهم وهو رضاه الأبدي عليهم، وبذا يجتمع نعيم رؤية الله ونعيم رضاه عنهم وهما أجل وأعلى نعيم الجنة إطلاقاً، وكل من علم أن سيده راضي عنه كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم^(١٧).

وفي آيات كرميات أخرى ذكر الله ﷻ وجل رضوانه فقال: ﴿قُلْ أَوتَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

وفي هذه الآية تدرج في ذكر النعيم من الحسي إلى المعنوي، ومن الأدنى إلى الأعلى فذكر الله أولاً: المقر، وهو جنات، ثم ثنى بما يحصل به الأنس التام وهو الأزواج، ثم ثلث بذكر الرضوان الذي هو غاية المحبين ومنتهى سعادتهم^(١٨).

ورضوان الله الكثير الكبير في الجنة إنما حصله المؤمنون لقاء رضاهم عن ربهم في الحياة الدنيا فرضي عنهم وأرضاهم في الجنة فلم يدع لهم مطلباً إلا وأعطاهم وزيادة، وقد ذكر الله ذلك في آيات عديدة قرن فيها رضاه عنهم منها قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّالِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

ووجه اقتران رضا الرب برضا المؤمنين، أن رضوان الله ليس كرضا غيره؛ لأنه يستلزم رضا من رضي عنه، لأنه يعطيه أضعاف ما يستحق وفوق ما يؤمله ويرجوه^(١٩).

ومن ذلك قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾ [البينة: ٧-٨].

وجملة «رضي الله عنهم» مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرد الجزاء، وهو رضوانه عليهم حيث أطاعوا أمره وقبلوا شرائعه، ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب ما لا يخطر ببالهم^(٢٠).

المبحث الثالث: نعيم الجنة بكلام الله لأهلها والسلام عليهم

التحية: الكلام الذي يخاطب به عند ابتداء الملاقاة إعراباً عن السرور باللقاء من دعاء ونحوه، وتحية الإسلام: السلام عليكم، وهو دعاء بالسلامة والأمن، أي من المكروه لأن السلامة أحسن ما ينبغي في الحياة، ولذلك كانت تحية المؤمنين في الجنة السلام تلذذاً باسم ما فيه من السلامة^(٢١) قال تعالى: ﴿تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝٥٨﴾ [الأحزاب: ٤٤]، يس: ٥٨ وقال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨].

وسلام الله على أهل الجنة فيه التكريم والعناية والرضا منه سبحانه عنهم، وذكر السلام بعد ذكر ما حباهم به من النعيم فيه إخبار بأن لهم ما هو أسمى وأعلى وهو التكريم بالتسليم عليهم^(٢٢).

وفي الآية إشارة إلى عظم السلام واستمراريته إذ جاء «سلام» منكراً ومرفوعاً^(٢٣).

وكذلك الملائكة تسلم على أهل الجنة تكريماً واحتفاء بهم قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

الملائكة يدخلون على أهل الجنة زائرين مسلمين وذكر «من كل باب» كناية عن كثرة زيارة الملائكة لهم، بحيث لا يخلو باب من أبواب بيوتهم وقصورهم وغرفهم لا تدخل منه ملائكة، أن هذا الدخول لما كان مجلبة مسرة كان كثيراً في الأمكنة، ويفهم منه أن ذلك كثير في الأزمنة فهو متكرر لأنهم ما دخلوا من كل باب إلا لأن كل باب مشغول بطائفة منهم، فإنه قيل من كل باب في كل حين^(٢٤)، وفي تسليم الملائكة بشارة لأهل الجنة بدوام السلامة، وقولهم «بما صبرتم» أي: هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم على أمر الله تعالى ونهيه وأقداره^(٢٥).

وفي سورة الواقعة قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

أي: سلام إثر سلام، وهو يفيد الكرامة لأن الإكرام لذة روحية يكسب النفس عزة وإدلالاً^(٢٦)، وهذا السلام سلام من الله ﷻ و سلام من الملائكة الكرام و سلام المؤمنين بعضهم على بعض، والسلام مبتدأ يتبعه الكلام، كلام سالم من اللغو، كلام فيه الاحتفاء والتنويه والإشادة والتكريم، فهم في أكرم صلة بربهم في الجنة، واستثناس بالملائكة الكرام وبإخوانهم المؤمنين.

وقد ورد في الحديث الشريف كلام الرب ﷻ مع أهل الجنة فقد روى البخاري في باب كلام الرب مع أهل الجنة عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يوماً يحدث وعنده رجل من أهل البادية: أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال: أولست فيما شئت؟ قال بلى، ولكنني أحب أن أزرع، فأسرع وبذر فتبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال، فيقول الله تعالى دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك

شيء، فقال الأعرابي: والله لا تجد هذا إلا قرشياً أو أنصاريّاً، فإنهم أصحاب زرع، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك رسول الله ﷺ (٢٧).

ففي هذا الحديث بيان لأحوال المؤمنين مع ربهم وكلامهم له وطلبهم منه ما يشتهون وأن الرب ﷻ يحقق لهم ما يتمنونه في الجنة، وتكليم الله أهل الجنة وكلامهم له أعلى من نعيمها الجسماني ولا شك، ففيه ما فيه من نعيم الروح والقلب مما لا يمكن التعبير عنه.

المبحث الرابع: النعيم في الجنة بذكر الله وتسبيحه

ومن النعيم النفسي الدائم والملازم لأهل الجنة في كل أحوالهم ذكر الله بتسبيحه وحمده، يجري منهم مجرى الأنفاس تلذذاً وتعبيراً مما يجيش في قلوبهم من مشاعر جميلة متكاثرة من عظيم حب الله، وشعور بعظيم النعيم الذي من الله عليهم، ورؤية لعظيم قدرة الله المتجلية في آلائه، وغير ذلك، نعيم التسبيح هذا يجعل نعيمهم الجسماني يزدان به، ويسمو ويرتفع إلى آفاق أرفع من النعيم، فيكون نعيمهم في غاية الرفعة والعلو حيث قد اجتمع لهم نعيان نعيم الجسد ونعيم الروح.

وقد ذكر الله تسبيح أهل الجنة وتحميدهم في غير ما آية منها قوله تعالى: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَأٰخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

أي: عبادتهم في الجنة أولها تسبيح الله وتنزيه له، وآخرها تحميد الله تلذذاً بلا كلفة ولا مشقة، إذ التكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات ألا وهو: ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح (٢٨).

فالدعاء هنا: دعاء عبادة وثناء للرب سبحانه، ويجوز أن تكون تسمية هذا التسبيح دعاء من حيث أنه مسوق للتعرض إلى إفاضة الرحمت والنعم، كما قال أمية بن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه عن تعرضه الثناء (٢٩)
وقد ذكر الطبري أن أهل الجنة إذا أرادوا شيئاً قالوا: سبحانه اللهم فيأتيهم ما دعوا به (٣٠). وما ذكره واختاره الطبري وجيه أيضاً لأنه إذا كان تسبيح المؤمنين في الدنيا وتحميدهم وتهليلهم غراساً للجنة كما جاء في الحديث فلا مانع أن يكون التسبيح في الجنة به تتحقق أمنيات أهل الجنة قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٣٥) [ق: ٣٥]، فهم في تسبيح دائم حتى في حال طلبهم لما يشتهون.

ولقد جاء في الحديث الصحيح أن أول زمرة يدخلون الجنة من صفتهم أنهم «يسبحون الله بكرة وعشياً...» (٣١).

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أنهم «يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس»، وفي رواية أخرى: «ويلهمون التسبيح والتكبير، كما يلهمون النفس» (٣٢).

قال ابن حجر رحمه الله: «وجه تشبيه التسبيح بالنفس، أن تنفس الإنسان لا كلفة عليه فيه ولا بد له منه، فجعل تنفسهم تسبيحاً وسببه أن قلوبهم تنورت بمعرفة الرب ﷻ وامتلات بحبه، ومن أحب شيئاً أكثر ذكره» (٣٣).

المبحث الخامس: نعيم الجنة بالسلامة من المكدرات النفسية

النعم لا يصفو للإنسان إذا كانت حالته النفسية غير سليمة، فالخوف والهم والحزن كله ينقص النعم أو يزيله بالكلية، وكذلك إذا لم تكن نفس الإنسان سليمة من الصفات الذميمة كالحسد والغل فإن الإنسان لا يهنأ بالعيش، وكذلك إذا كان هناك كلام باطل ومؤذ. والجنة كما سلمت من المكدرات الظاهرة التي تؤذي الحواس، فإنها سلمت من

الآفات النفسية والقلبية التي تؤذي النفس، وبذلك كمل النعم لأهل الجنة، فالجنة سماها الله دار السلام فقال سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْأَلُونَ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

ونوجز ذلك في أمرين:

أولاً: الأمان والسلامة من الخوف والحزن

نفى الله ﷻ الخوف والحزن عن المؤمنين الذين اتبعوا هداه فقال: ﴿فَمَنْ يَسْعَ هُدًى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

والأمان الكامل من الخوف والحزن يحصل للمؤمنين عندما يدخلون الجنة وإن كان لهم نصيب منه في الدنيا وفي الحياة البرزخية وفي يوم القيامة وذلك حسب درجاتهم في قوة الإيمان، قال تعالى في حديثه عن أصحاب الأعراف: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَتْنَمٌ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

والتعبير في نفي الخوف بالخبر الاسمي وهو «لا خوف عليكم» لإفادة نفي جنس الخوف نفيّاً قاراً، لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات، والتعبير في نفي الحزن بالخبر الفعلي وهو «يَحْزَنُونَ» لإفادة تخصيصهم بنفي الحزن في الآخرة أي بخلاف غير المؤمنين^(٣٤).

والخوف ينشأ عن توقع مكروه، وضد الخوف الأمان^(٣٥) والجنة ليس فيها توقع مكروه أبداً فقد أعطى الله ﷻ أهلها الأمان المطلق وأحل عليهم رضوانه وورقهم الخلود فلا خوف من الموت، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وصار أهل النار إلى النار، أتى بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً

إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم» (٣٦). وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً»، فذلك قوله ﷺ: ﴿وَتُودُّوْا أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رُتِمُوْهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ (٤٣) [الأعراف: ٤٣]. وقال ﷺ عن حال أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُوْرٌ شَكُوْرٌ﴾ (٣٤) [فاطر: ٣٤-٣٥].

الحزن خشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم وضده الفرح (٣٧)، فأهل الجنة يمدحون الله ﷻ على ما هم فيه من الفرح التام وذهاب كل الحزن، ويستحضرون فضل الله عليهم بما منّ عليهم من المغفرة والإنعام، فهو الغفور الشكور الذي أسكنهم دار الخلد لا يمسهم فيها شيء من النصب وهو التعب الجسماني، أو اللغوب وهو التعب النفسي (٣٨).

والدنيا يحصل للإنسان فيها الخوف والشعور بالأمان، والفرح والحزن، والنعيم والبؤس، والتعب النفسي والراحة النفسية، وأمثالها من الأضداد وبذلك ينمو ويكتمل إدراكه ويتأهل لمصيره في الآخرة فأهل الجنة يتضاعف نعيمهم لمعرفة قيمة ما هم فيه من السلام والسرور وقدره لأنهم يدركون مرارة ضده وألمه من الخوف والحزن، وعلى عكسهم أهل النار يزداد غمهم وهمهم لأنهم حرموا من الفرح والراحة التي عرفوها وذاقوها في الدنيا، وبهذا يتبين العلو الكبير لنعيم الجنة النفسي.

ثانياً: نعيم الجنة بسلامة أهلها من الغل وسوء الأخلاق

كما أكمل الله ﷻ للمؤمنين جمالهم وكمالهم الخلقي أكرمهم بإكمال جمال أخلاقهم وطباعهم ونزع كل خلق وطبع سيئ من نفوسهم. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غَلٍّ يُغَيِّرُ مِنْ تَحِيهِمْ أَلَّا تَهْتَرُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

بينت الآية الكريمة أن الله ﷻ ينقي قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد، وذلك أن صاحب الغل متعذب به ولا عذاب في الجنة (٣٩)، فالمؤمنون يطهرهم ربهم من الغل والخصال المذمومة المتولدة منه من الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد، وكذلك يخلصهم منه ومن أسبابه على أبواب الجنة قبل أن يدخلوها (٤٠).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون في قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله الذي كان في الدنيا» (٤١). وروى ابن حجر شاهداً للحديث فقال: «ولأصل الحديث شاهد من مرسل الحسن أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «يجبس أهل الجنة بعدما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلماتهم في الدنيا ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل» (٤٢).

وقال تعالى مبيناً سلامة الجنة من الأخلاق السيئة وما ينتج منها قول اللغو والكذب والتأثيم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ [النبا: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الأنعام: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الأنعام: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿[الغاشية: ١١].﴾

اللغو: فضول الكلام، وما لا طائل تحته، ويدخل فيه فحش الكلام وباطله^(٤٣)، والتأثيم: اللوم والإنكار، وهو مصدر أثم، إذا نسب غيره إلى الإثم، فخلو الجنة مما ذكر مصدر نعيم روعي عالٍ، فإن سلامة النفس من سماع ما لا يُحِبُّ سماعه ومن سماع ما يُكره سماعه من الأذى والاشتغال بسماع الطيب من القول سموً في نفوس أهل الجنة إذا تخلصت من النفائس كلها فلا يلذ لها إلا الحقائق والسمو العقلي والخلقي، وأيضاً فإن أهل الجنة كما سماعهم طيب فكذلك كلامهم^(٤٤). قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٢٤]. فكلامهم ذكر الله ﷻ، وسائر كلامهم من محاوراة وحديث طيب لا لغو فيه^(٤٥).

المبحث السادس: نعيم الجنة بالحب والأخوة والتزاور بينهم

من أرفع نعيم أهل الجنة المودة والحب الذي يكون بينهم وقد نزع الله ﷻ من قلوبهم الغل، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فالله ﷻ طهر قلوب أهل الجنة من أن يتحاسدوا على درجات الجنة، ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادد والتحاب، فهم متآخون متقابلون على السرر في غاية التأنس بعضهم ببعض بالرؤية والمحادثة^(٤٦).

وتآخي المؤمنين في الجنة أعلى وأرفع من تأخيهم في الدنيا لأن التأخي في الدنيا قد تشوبه ضغائن وشحناء وتآخي الجنة لا غل فيه فهو مصافاة في المودة والإخلاص^(٤٧). وقد ذكر الله ﷻ بعضاً من مجالس أهل الجنة في القرآن يظهر فيها حالهم من السرور والتسامر والنعيم، فمن ذلك قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَهَؤُلَاءِ لَيْسَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَهَؤُلَاءِ مِمَّنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَهَؤُلَاءِ لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أُنتَرِ مُظْلِمُونَ (٥٤) فَأَعْلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَأَتَزِينَنَّ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ

الْمُحْصَنِينَ ﴿٦٧﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتَيْنِ ﴿٦٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٦٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْأَقَةُ الْعَظِيمِ ﴿٧٠﴾ [الصفات: ٥٠-٦٠].

في هذه الآيات بيان مجالس أهل الأنس لعباد الله المخلصين - بعد ما يُسرت لهم أنواع النعيم - إذ هم ينعمون بسمر جميل يتذكرون في أحوالهم في الدنيا ويقص فيه أحدهم على إخوانه طرفاً مما وقع له مع بعض المكذبين^(٦٨)، ومشهد آخر من مجالس سمر المتحابين يقصه الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٧١﴾ فَتَكُونُ بِمَاءِ النَّهْمِ رِيحٌ وَوَقْنُهُمْ رِيحٌ عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴿٧٢﴾ كُلُوا وَامْشَوْا هَيْثَا بُمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُورِ مَقْصُوفَةٍ وَزَوَجَتْهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْغَفَّارِ ﴿٧٥﴾ أَلْتَنَّهُمْ مِنَ عَلَيْهِمْ رِيحٌ كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴿٧٦﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيهَا كَهْفَ وَحَرٍ وَمَا يَشْتَرُونَ ﴿٧٧﴾ بِشَرِّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيْدٌ ﴿٧٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴿٧٩﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٨١﴾ فَمَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٨٢﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٨٣﴾ [الطور: ١٧-٢٨].

في الصورتين السابقتين نجد حديث أهل الجنة في مجالس سمرهم عن أيام الدنيا، وكيف كانوا فيها على الإيمان بالله ﷻ وكيف كانوا مشفقين من الآخرة وكيف وقاهم الله سبحانه عذابها وأسكنهم جنته إذ هو البر الرحيم بهم، وكل هذا الحديث والسمر المحفوف بصنوف النعيم والتكريم ينم عن مدى ما هم فيه من اللذات والسرور والأنس والمحبة.

ويجبر القرآن عن مدى اتساع مجال التواصل والحب بين المؤمنين في الجنة حيث يشمل المتحابين على اختلاف درجاتهم من النبيين وحتى الصالحين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

وَحَسَنُ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

فالآية الكريمة تشير إلى الصحبة الكريمة لهذا الرهط الكريم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهو متاع روعي عالٍ أكرم الله ﷻ به المتحابين من المؤمنين به سبحانه فضلاً منه وكرماً، فهي أحسن رفقة وصحبة (٤٩).

وجاء في الحديث الشريف ما يؤكد معنى الرفقة في الآخرة للمتحابين في الله ﷻ حتى مع اختلاف درجاتهم في الجنة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في الرجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» (٥٠).

جعلنا الله من أصحاب هذا النعيم، ومن الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

- (١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، ص٦، حديث رقم ١٦.
- (٢) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، ١٨٣/١-١٨٤، دار ابن عثان، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- (٣) انظر: تفسير البغوي «معالم التنزيل»، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ص٥٩٩.
- (٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ص٩٣٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣٣٠/٨، وجامع البيان عن تأويل القرآن للطبري، ١٠٤/٧-١١٠.
- (٥) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، ص١٢٧٩، حديث رقم ٧٤٣٤.
- (٦) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ٤٤٦/١١-٤٤٧، دار الفكر.
- (٧) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار المغني، الرياض، ط١، ١٩٩٨، ص١١٠، حديث رقم ٢٩٨.
- (٨) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور، ٣٥٣/٢٩.
- (٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٠٧/١٩.
- (١٠) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٩٢٥.
- (١١) سيد قطب، في ظلال القرآن، تفسير الآيتين ٢٢، ٢٣ من سورة القيامة.
- (١٢) تفسير الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الخازن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ٣٨٤/٢.
- (١٣) انظر التحرير والتنوير، ٣٦٤/١٠-٣٦٥.
- (١٤) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٤م، ٣١٨/٢.
- (١٥) انظر تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٨٣/٤.
- (١٦) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، ص١١٣٤، حديث رقم ٦٥٤٩.

- (١٧) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٤٢٢/١١.
- (١٨) انظر روح المعاني للألوسي، ١٠١/٣.
- (١٩) انظر صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبد الرحمن بن محمد الدوسري، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠٠٥م، ٥٤٩/٩.
- (٢٠) انظر فتح القدير للشوكاني، ٤٧٧/٥.
- (٢١) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور، ٥١/٢٢.
- (٢٢) انظر المرجع السابق، ٤٤/٢٣.
- (٢٣) انظر معارج التفكير للميداني، ١٦٢/٦.
- (٢٤) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور، ١٣٢/١٥.
- (٢٥) انظر تفسير أبي السعود، ١٨/٥، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣١٣-٣١٢/٩.
- (٢٦) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور، ٢٩٧/٢٧.
- (٢٧) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، ص١٢٩٧، حديث رقم ٧٥١٩.
- (٢٨) انظر تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن ناصر السعدي، دار المغني، الرياض، ط١، ١٩٩٩م، ص٣٧٥.
- (٢٩) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور، ١٠٢/١١-١٠٣.
- (٣٠) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري، ٨٩/٧-٩٠.
- (٣١) انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ص٥٢٤، حديث رقم ٣٢٤٦.
- (٣٢) انظر صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ص١٥٢١، حديث رقم ٢٨٣٥.
- (٣٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٣٢٦/٦.
- (٣٤) التحرير والتنوير، ٥٤٠/١-٥٤١.
- (٣٥) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، ص٣٠٣.
- (٣٦) صحيح مسلم، ص١٥٢٧، رقم ٢٨٥٠.
- (٣٧) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٢٧١.
- (٣٨) انظر روح المعاني للألوسي، ٢٠٠/٢٢.
- (٣٩) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، ص٧٠٤.
- (٤٠) انظر تفسير الخازن، ٥٨-٥٧/٣.

- (٤١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، ص ١١٣٢، حديث رقم ٦٥٣٥.
- (٤٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٣٩٩/١١.
- (٤٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار، ٣٦١/٤.
- (٤٤) انظر التحرير والتنوير، ٣٠٠/٣٠.
- (٤٥) المحرر الوجيز لابن عطية، ص ١٣٠٦.
- (٤٦) انظر تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وبيان الأقاويل ووجه التأويل، أبو القاسم جبار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ م، ٣٩٢/٢، وانظر التحرير والتنوير، ٥٦/١٦.
- (٤٧) انظر زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤ م، ٤٠٤/٤.
- (٤٨) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٩٨٨/٥.
- (٤٩) انظر في ظلال القرآن، ٦٦٩٩/٢.
- (٥٠) صحيح البخاري، كتاب الأدب، ص ١٠٧٥، حديث رقم ٦١٦٩.